

الدور السياسي لشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية

آمال حامد زيان غانم

مدرس، قسم التاريخ
كلية الآداب، جامعة القاهرة، مصر

الملخص

اشتهر الشيخ تقي الدين أحمد بن تيمية (661هـ - 728هـ / 1262م - 1327م) بما قام به من دور علمي كبير في مجال التدريس والإفتاء والتأليف، غير أن دوره السياسي لا يقل أهمية عن دوره الديني والعلمي، وعلى الرغم من ذلك لم يحظ هذا الدور باهتمام كبير من الدارسين خاصة أنه جاهد جهاداً كبيراً ضد المغول الذين دأبوا على الإغارة على بلاد الشام وبخاصة دمشق، واشترك في إحدى المعارك الشهيرة، وكانت مشاركته في تلك المعركة - وهي معركة شقحب - هي سبب انتصار السلطان الناصر محمد على المغول.

وخلال هذه الدراسة سوف نلقي الضوء على دور الشيخ تقي الدين بن تيمية السياسي وجهاده ضد المغول بدءاً من محاولته إنقاذ دمشق من هجمة المغول وتخريبهم لها وعدم التزامهم بالأمان الذي قطعوه على أنفسهم تجاه أهل دمشق، ثم مقابلته للسلطان محمود غازان حاكم المغول وتذكيره بما تفرضه عليه شعائر الإسلام من الوفاء بالعهد وعدم الجور، ثم بعد ذلك في قيامه بحث السلطان الناصر محمد سلطان مصر والشام على جهاد المغول، أما الدور الأكبر فكان في حث الجند على الثبات في المعركة وفي تبشيره بالنصر، وفي فتواه في جواز محاربة المغول على الرغم من أن السلطان محمود غازان كان قد سبق أن أعلن إسلامه.

وكان لدور تقي الدين في حث الجند والأمراء والسلطان على الثبات والجهاد أثره في إحراز النصر على المغول في معركة شقحب عام 702هـ / 1302م، ذلك النصر الذي لا يقل أهمية عن الانتصار في معركة عين جالوت.

كذلك أخذ على عاتقه محاربة البدع والخرافات والمذاهب الهدامة التي تنخر في صلب الدولة، وأهم ما قام به في ذلك محاربة الكسروانيين أو أهل جبل الكسروان الذين وقفوا موقف المعادة من الدولة والسلطان والأمراء والجند، وفرحوا فرحاً كبيراً عندما هُزموا أمام المغول عام 699هـ / 1299م.

وجملة القول أن الشيخ تقي الدين عاش حياة ملؤها الجهاد والكفاح سواء كان في مجال الدين أم الدنيا.

عجّت كتب التاريخ بمناقب شيخ الإسلام الشيخ تقي الدين أحمد بن محمد بن تيمية الحراني، وتحدثت هذه الكتب عن علمه وتدينه ووعظه وإفتائه ومؤلفاته⁽¹⁾، ولكن الذي لم تتحدث عنه باستفاضة واكتفت بالإشارة إليه فقط هو دوره في الحرب والسياسة، ومشاركته الفعالة في كل ما يخص أمور المسلمين ولا سيما ما أحاط بالإسلام والمسلمين من أخطار تمثلت في جهاده ضد المغول وكل خارج عن الإسلام والمسلمين⁽²⁾.

وعلى الرغم مما عُرف عن الشيخ تقي الدين أحمد من علم ومعرفة وتدين ووعظ وإفتاء ومؤلفات في شتى نواحي الدين، ومشاركته الفعالة في أحداث عصره، وما قام به من دور كبير في الجهاد ضد الأعداء، فإنه ظلم ظُلماً كثيراً؛ فقد رماه حُساد بالوقوع في الخطأ في بعض فتاواه، وعملوا على إقصائه عن التدريس والإفتاء، لدرجة أنه أودع السجن أكثر من مرة⁽³⁾، كان آخرها سجنه بقلعة دمشق في شهر شعبان عام 726هـ/ يولييه 1326م، وهي التي طال بها سجنه حتى توفي بها في العشرين من ذي القعدة عام 728هـ/ 28 سبتمبر 1328م⁽⁴⁾.

وتتطرق هذه الدراسة إلى الحديث عن علم الشيخ تقي الدين ودوره في الإفتاء وأمور الدين، وسوف تركز على دوره السياسي، ويتجلى هذا الدور من خلال ثلاثة مواقف أساسية: الأول حُضه أهل دمشق على الوقوف في وجه المغول وبثّه روح الجهاد في نفوسهم، كذلك توجهه إلى الديار المصرية لمقابلة السلطان الملك الناصر محمد وحُضّه على الجهاد ضد المغول (مُغول فارس). والموقف الثاني مشاركته الفعالة في قتال المغول في معركة شُقحب المشهورة عام 702هـ/ 1303م. والموقف الثالث اشتراكه في قتال الكسروانيين وجهادهم عام 705هـ/ 1305م.

أما عن دوره في الجهاد ضد مُغول فارس - وبخاصة السلطان غازان -⁽⁵⁾. فالمعروف أن مُغول فارس منذ أن أسس هولاكو دولتهم في فارس التي أطلق عليها اسم دولة الإيلخانيين⁽⁶⁾، قد عملوا بوصية الخان الأعظم لهولاكو حيث قال له: "حافظ على تقاليد جنكيزخان وقوانينه في الكليات والجزئيات، وخص كل من يطيع أوامرُك ويجتنب نواهيك في الرقعة الممتدة من

جيحون حتى بلاد مصر بلطفك وبأنواع عطفك وإنعامك. أما من يعصيك فأغرقه في الذلة والمهانة مع نسائه وأبنائه وأقاربه وكل ما يتعلق به" (7)، ولذلك أخذوا في الإغارة على مختلف البلدان الإسلامية، واستطاعوا في مُدَّة وجيزة تحطيم قلاع الإسماعيلية والإغارة على العراق وإسقاط الخلافة العباسية والاستيلاء على بغداد ثم التوجه إلى بلاد الشام والاستيلاء على معظم مدنه، حتى كانت هزيمتهم في عين جالوت عام 658هـ/1260م على يد جيوش المماليك، فارتدوا إلى فارس وأجزاء من العراق واتخذوها قاعدة لحكمهم وأخذوا يغيرون بين الحين والآخر على المناطق الواقعة إلى الشمال والشرق منهم، غير أن المماليك كانوا لهم بالمرصاد⁽⁸⁾، ولذلك امتلأت وقائع هذه الفترة بالمعارك الضارية بين مُغول فارس والمماليك⁽⁹⁾. وتعتبر إغارات السلطان غازان بن أرغون على بلاد الشام فصلاً من هذه الوقائع⁽¹⁰⁾.

دأب السلطان محمود غازان على الإغارة على بلاد الشام وكان أشهر تلك الغارات ما حدث عام 699هـ/1299م من إغارته على نواحي دمشق وأعمالها. وعزم السلطان غازان بعد ذلك على دخول دمشق والاستيلاء عليها عقب هزيمته لجيوش السلطان الناصر محمد في موقعة مجمع المروج⁽¹¹⁾. وقد حصل في تلك الموقعة لأهل الشام من سبي الحرم والذرية، وتعذيب الخلق بسبب المال ما لا يوصف⁽¹²⁾، وهلك خلائق من العذاب والجوع⁽¹³⁾، فاضطربت أحوال أهل دمشق "وخرجت النساء باديات الوجوه، وترك الناس حوانيتهم وأموالهم، وخرجوا من المدينة، فمات من الزحام في الأبواب خلق كثير، وانتشر الناس برؤوس الجبال وفي القرى، وتوجه كثير منهم إلى جهة مصر" (14). وهذا بالطبع نتيجة ما عُرف عن غازان وعساكره من سوء معاملة اشتهر بها المُغول على مر التاريخ.

وهنا ظهر دور شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية في محاولة حماية دمشق من عدوان المُغول.

أما الشيخ تقي الدين هذا فهو أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن عبدالله بن الخضر بن محمد بن الخضر بن علي بن عبدالله بن تيمية الحراني

الدمشقي الحنبلي، ولد بحران في يوم الإثنين 10 ربيع الأول عام 661هـ/ 23 يناير 1263م⁽¹⁵⁾، قدم دمشق مع والده وهو صغير عام 667هـ/ 1269م، بعد أن غادر والده حران بسبب إغارات المغول، حيث تتلمذ على يد جماعة كبيرة من علماء دمشق⁽¹⁶⁾، وقد برع في مختلف العلوم من فقه وحديث وتفسير وهو في سن صغيرة فانبهر الفضلاء من فرط ذكائه، وسيلان ذهنه، وقوة حافظته، وسرعة إدراكه⁽¹⁷⁾، واشتغل بالعلوم، وكان من أذكى الناس، كثير الحفظ، قليل النسيان، قلما حفظ شيئاً فَنَسِيَهُ، إلى أن صار إماماً في التفسير وعلوم القرآن، عارفاً بالفقه واختلاف العلماء، بارعاً في الأصول، والنحو وما يتعلق به، واللغة، والمنطق، وعلم الهيئة، والجبر والمقابلة، وعلم الحساب، وعلم أهل الكتابين وأهل البدع، وغير ذلك من العلوم النقليّة والعقليّة، حتى إنه ما تكلم معه فاضل في فن من الفنون إلا ظن أن ذلك الفن فنه. وصار حافظاً للحديث مميزاً بين صحيحه وسقيمّه، عارفاً برجاله وعلمه، مع التبحر في علم التاريخ⁽¹⁸⁾.

بالإضافة إلى ذلك فقد كان متمسكاً بالعقيدة الصحيحة، داعياً إلى العودة إلى السلف الصالح منكرًا للبدع والخرافات، وله مواقف عديدة في ذلك؛ منها ما حدث عام 704هـ/ 1305م؛ ففي يوم الإثنين 26 رجب / 23 فبراير توجه إلى مسجد التاريخ بظاهر دمشق - ويسمى أيضاً مسجد الحجر؛ لأنه يوجد به حجر قيل إن عليه أثر قدم النبي ﷺ - وأحضر جماعة من الحجارين وقطع صخرة هناك كان الناس يزورونها وينذرون لها، وكان للناس فيها أقاويل فأزالها⁽¹⁹⁾.

وفي عام 705هـ/ 1306م أنكر الشيخ تقي الدين بن تيمية على الفقهاء الأحمديّة - أي الصوفية الأحمديّة⁽²⁰⁾ - ما يفعلونه من دخولهم في النيران المشتعلة، وأكلهم الحيات، ولبسهم الأطواق الحديد في أعناقهم، وتقلدهم بالسلاسل على مناكبهم، وعمل الأساور الحديد في أيديهم، ولفهم شعورهم وتلييدها، وحضر في جماعة مع النائب، وعرفه أن هذه الطائفة مبتدعة، وقام بمناظرتهم مناظرة علمية⁽²¹⁾. فكان يوماً مشهوداً كادت تقوم فيه فتنة، واستقر الأمر على العمل بحكم الشرع.

قال عنه معاصره الجزري القرشي (ت 738هـ): كان عنده ذكاء مُفرط، وبديهة حسنة، وطرف جيد من التفسير والفقه والأصول والنحو واللغة والخلاف، فكان فيه إماماً ماهراً، وفي علوم الحديث، كان يعرف الصحيح من السقيم، ويذكر رجاله، العدل فيهم والضعيف، وهو في ذلك إمام، مبرز، وكان في أكثر العلوم له فيها اليد الطولى، وصنف تصانيف كثيرة في علوم شتى، وكان علمه أكثر من عقله، وكان كثير الذكر والصوم والصلاة والعبادة⁽²²⁾. قال عنه ابن كثير⁽²³⁾: كان ذكياً كثير المحفوظ، فصار إماماً في التفسير وما يتعلق به، عارفاً بالفقه، فيقال إنه كان أعرف بفقه المذاهب من أهلها الذين كانوا في زمانه وغيره، وكان عالماً باختلاف العلماء، عالماً في الأصول والفروع والنحو واللغة، وغير ذلك من العلوم الثقيلة والعقلية، وما قطع في مجلس ولا تكلم معه فاضل في فن من الفنون إلا ظن أن ذلك الفن فنه، ورآه عارفاً به متقناً له، وأما الحديث فكان حامل رأيته، حافظاً له، مميزاً بين صحيحه وسقيمه، عارفاً برجاله متضلعاً من ذلك.

ونتيجة ما وصل إليه الشيخ تقي الدين من علم ونباهة، زاد حساده الذين أخذوا في الإيقاع به ومحاولة الدس ضده، ومعارضة كثير من فتاواه ومحاولة تخطيئه، وكان لذلك أثر فيما تعرض له من منعه من الإفتاء. وتوقيفه عن التدريس، بل وصل الأمر إلى حبسه في أكثر من مرة، كان آخرها تلك التي توفي فيها عام 728هـ/ 1328م حيث كان محبوساً بقلعة دمشق⁽²⁴⁾.

وإزاء ما تعرضت له دمشق من أخطار غزو غازان لها ونهب عساكره ما بها من خيرات وتخوف أهلها تخوفاً كثيراً، لم يقف الشيخ تقي الدين موقف المتفرج وإنما عمل على تأمين دمشق، وبخاصة بعد أن أدرك استحالة دفع جيوش المغول عنها في تلك الغزوة⁽²⁵⁾، لذلك توجه ومعه عدد من العلماء وأعيان دمشق لمقابلة غازان وطلبوا منه أماناً لأهل دمشق؛ فيذكر المقرئ⁽²⁶⁾ أنه قد توجه قاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة⁽²⁷⁾ وشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية والشريف زين الدين بن عدنان والصاحب فخر الدين بن الشيرجي وعز الدين حمزة بن القلانسي في جمع كبير من الأعيان والفقهاء

والقراء إلى غازان طالبين منه أماناً لأهل دمشق. وقد استجاب غازان لمطلب الشيخ تقي الدين أحمد وجماعة العلماء، فعمل على تهدئة أهل دمشق بأن منحها أماناً بمقتضى فرمان أو وفاق أصدره في شهر ربيع الآخر من العام نفسه/ يناير 1300م⁽²⁸⁾، ومما جاء في هذا الوفاق تعهد غازان ألا يتعرض أحد من العساكر المذكورة على اختلاف طبقاتها لدمشق وأعمالها، وسائر البلاد الإسلامية الشامية، وأن يكفوا عن التعدي على أنفسهم وأموالهم وحریمهم، ولا يحوموا حول حماهم بوجه من الوجوه، حتى يشتغلوا بصدور مشروحة وآمال مفسوحة بعمارة البلاد، وبما هو كل واحد بصدده من تجارة وزراعة وغير ذلك⁽²⁹⁾.

غير أن غازان - جرياً على عادة المغول من عدم الوفاء بالعهد - لم يعمل بهذا الوفاق⁽³⁰⁾؛ فبعد أن استسلم أهل دمشق له، ودخلت جيوشه دمشق وخطب له على منابرهما عاثت عساكره في العُوطة وظاهر المدينة نهب وتفسد، ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد، وإنما أخذ رجال غازان في نهب سائر قرى دمشق مثل الصالحية⁽³¹⁾ والمزة⁽³²⁾ وداريا⁽³³⁾، "ونهبوها وقتلوا جماعة من أهلها"⁽³⁴⁾. فما كان من الشيخ تقي الدين أحمد بن تيمية إلا أن توجه إلى غازان وكان معسكراً بتل راهط⁽³⁵⁾ ليحدثه فيما قام به جنده من نهب قرى دمشق وسلبها وفي تذكيره بما قطعه على نفسه وعلى عساكره من عدم المساس بأهل دمشق وأموالهم. ولكن لم يتمكن الشيخ تقي الدين أحمد من مقابلة غازان، ويعلل المقرئ ذلك بانشغال الأخير بالسكر وعدم الإفاقة، فاجتمع ابن تيمية بوزيري غازان سعد الدين ورشيد الدين اللذين أشارا على الشيخ تقي الدين بأن الاستيلاء على أموال دمشق أمر لا بد منه، وقالوا له: لا بد من المال⁽³⁶⁾.

ولم يأس الشيخ تقي الدين من مقابلة غازان والحديث معه عسى أن يرق قلبه ويتراجع عن نهب بلاد الشام وسلبها، فذهب إليه مرة ثانية، ويشير المقرئ إلى أنه في هذه المرة اجتمع به ودارت بينهما محاورة أوردها المقرئ حيث قال لترجمان غازان: "قل للقان: أنت تزعم أنك مسلم، ومعك قاض، وإمام، وشيخ، ومؤذنون على ما بلغنا، فغزوتنا، وأبوك وجدك هولاء كانوا كافرين، وما عملاً الذي عملت عامداً فوفيا، وأنت عاهدت فغدرت، وقلت فما

وفيت " ، ورفض أن يأكل الطعام الذي قدمه غازان له ولمن معه من العلماء والأعيان، فقيل لابن تيمية : لم لا تأكل ؟ فقال : كيف آكل من طعامكم، وكله مما نهبت من أغنام الناس، وقطعتم من أشجار الناس ؟

ثم إن غازان طلب منه الدعاء . فقال في دعائه : اللهم إن كنت تعلم أنه إنما قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، وجهاداً في سبيلك، فأيده وانصره، وإن كان للملك والدنيا والتكاثر، فافعل به واصنع، وغازان يؤمن على دعائه⁽³⁷⁾. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على تمتع الشيخ بالشجاعة الفائقة والجرأة في القول بالحق .

وقد أكد تمتع الشيخ تقي الدين أحمد بن تيمية بالشجاعة الفائقة ابن حجر العسقلاني عندما ذكر أنه عند مقابله لغازان لم يخش منه وإنما كلمه بكلام قوي مما أغضب غازان، فهم بقتله لكن الله نجاه من غازان وغضبه⁽³⁸⁾.

وعندما أيقن الشيخ تقي الدين أحمد أنه لا فائدة من الحديث مع رجال غازان أو مع غازان نفسه انصرف عنهما⁽³⁹⁾؛ لأنه أدرك أن هؤلاء المغول لا عهد لهم ولا أمان، وهذا يذكرنا بما كان يفعله أجدادهم السابقون منذ أيام جنكيزخان وهولاكو، فبعد أن كانوا يقطعون على أنفسهم الوعود ويبدلون الأمان للبلاد، لا يحترمون تلك الوعود ويقومون بنهب تلك البلاد وسلبها وتدميرها⁽⁴⁰⁾.

استمر المغول من جند غازان في تخريب معظم بلاد الشام ونهبها، وبلغ الأمر أشده على دمشق حيث أخذوا في مصادرة أموال الناس، ونصبوا المجانيق في اتجاه قلعة دمشق، التي لم تستسلم لهم حيث تحصن بها الأمير أرجواش⁽⁴¹⁾ ورفض تسليمها لغازان⁽⁴²⁾، كذلك استولى المغول على جامع دمشق وأقاموا عليه المجانيق لقذف القلعة، وبلغ بهم الاستهانة بجامع دمشق أنهم اتخذوه حانة يزنون ويلوطون ويشربون الخمر فيه، وتعطلت الصلاة به عدة أيام⁽⁴³⁾.

حاول الأمير أرجواش أن يصد هجمات المغول، فأخذ في جمع الأموال من أهالي دمشق لشراء الأسلحة والاستعداد للقتال، فزاد حال أهل دمشق سوءاً؛ فالمغول ينهبون أموالهم وزرعهم، وأرجواش يفرض عليهم الأموال

ويأخذ ما لديهم من بغال وخيول ودواب استعداداً لحرب غازان. ويذكر المقرئزي⁽⁴⁴⁾ أنه " غلت الأسعار... ورُسم على كل طائفة جماعة من المُغل فضربوا الناس وعَصروهم، وأذاقوهم الخزي والذل، وكثر مع ذلك القتل والنهب في ضواحي دمشق، حتى يقال إنه قتل من الجند والفلاحين والعامّة نحو مائة ألف إنسان... وكان ما حُمِل لخزانة غازان وحده بلغ ثلاثة آلاف وستمائة ألف درهم سوى السلاح والثياب والدواب والغلال، وسوى ما نهبتة التتار... ".

لم يكتف المٌغول من جند غازان بنهب دمشق فقط وإنما أخذوا في توسيع دائرة النهب والسلب فوصلوا إلى القدس وعبروا إلى غزة وقتلوا بجامعها خمسة عشر رجلاً، وعادوا إلى دمشق بعد أن أسروا خلقاً كثيراً⁽⁴⁵⁾.

وعلى هذا النحو أخذ المٌغول في الاستهانة بأهل دمشق وإذلال أسراهم من أبناء بلاد الشام، وانتشروا في معظم بلاد الشام حتى وصلوا إلى بيت المقدس والكرك في جنوب فلسطين وهم يعيشون في الأرض فساداً⁽⁴⁶⁾.

وعندما أيقن الشيخ تقي الدين أحمد بن تيمية أن القائمين على الأمور لن يستطيعوا حماية أهل دمشق من عدوان غازان وجنده⁽⁴⁷⁾، ولن يفعلوا شيئاً من أجل رفع الظلم عن أهالي بلاد الشام، والعمل على الإفراج عن الأسرى المسلمين، اتجه إلى المٌغول في أثناء وجودهم بدمشق⁽⁴⁸⁾، وأخذ في مطالبهم بإطلاق سراح من أسروه من أهل القدس وغزة، وظلّ يحدثهم حتى أفرجوا عن الأسرى⁽⁴⁹⁾. وبذلك استطاع الشيخ تقي الدين أحمد بما تمتع به من هيبة في نفوس المٌغول أن يجبرهم على إطلاق سراح ما لديهم من أسرى المسلمين، وهذا يؤكد ما وصل إليه الشيخ من مكانة دينية وعلمية سامية ذات تأثير كبير ليس في المجتمع الإسلامي فقط بل عند المٌغول أيضاً.

يُضاف إلى ذلك أنّ الشيخ تقي الدين أحمد بن تيمية اتجه إلى تقوية الجبهة الداخلية بدمشق، فأخذ في بث روح الجهاد والطمأنينة في أهالي دمشق، وأعاد الخطبة باسم السلطان الملك الناصر محمد في يوم الجمعة 17 رجب 699هـ/ 9 أبريل 1300م، كما عمل على إبطال ما استحدثت من المنكرات وأغلقت

الخممارات، وأريق ما فيها، وكما يذكر المؤرخ المعاصر وشاهد عيان هذه الأحداث النويري⁽⁵⁰⁾ أن الذي تولى ذلك الشيخ تقي الدين بن تيمية وأصحابه؛ مما يدل على ما بذله ابن تيمية من جهد كبير في إعادة الأمن والأمان، وجميع الأمور الصحيحة إلى نصابها بدمشق. ومما يذكر أن الشيخ تقي الدين قد لأم أولي الأمر بدمشق على سماحهم بفتح الخممارات؛ فقد روى العيني أن الشيخ تحدث مع الأمير قبجق⁽⁵¹⁾ نائب دمشق قائلاً له: "إن الذي فعلته من ضمان الخمر شنة كبيرة، وثلمة عظيمة في حق الإسلام، واستأذنه في إبطاله، فأذن له، وخرج بنفسه - أي الشيخ تقي الدين - وأراق ظروف الخمر جميعها"⁽⁵²⁾.

وإذا كان المغول من جند غازان قد غادروا دمشق في شهر رجب من العام نفسه (699هـ)، بعد إلحاح الشيخ تقي الدين عليهم، فإن الشيخ أيقن أنهم سوف يعودون مرة أخرى لنهب خيرات دمشق وسلبها، وأنه لا أمان لهم ولا عهد، وأنهم لن يوفوا بما قطعوه على أنفسهم، لذلك أكد ضرورة الوقوف أمامهم والعمل على صد غاراتهم، ولما لم يكن بدمشق قوة كافية تصمد أمام غارات المغول، فكر الشيخ تقي الدين في ضرورة الذهاب إلى الديار المصرية لمقابلة الناصر محمد وإثارة همته للخروج بجيوشه إلى الشام من أجل الوقوف في وجه جيوش غازان؛ فالسلطان المملوكي هو حاكم مصر والشام والمسؤول عن حماية دمشق⁽⁵³⁾.

وبالفعل توجه الشيخ تقي الدين أحمد بن تيمية في العام التالي (جمادى الأولى عام 700هـ/ يناير 1301م) إلى الديار المصرية. ويذكر الشيخ الذهبي - وكان معاصراً لهذه الأحداث (ت 748هـ) - أن الشيخ تقي الدين توجه إلى القاهرة، حيث اجتمع بأكابر الأمراء وحرصهم على الجهاد⁽⁵⁴⁾، ويؤيد هذا الحديث ابن شاعر الكتبي وقد عاصر هو الآخر هذه الأحداث (ت 764هـ) - وإن كان متأخراً بعض الشيء عن الذهبي - حيث يقول: إن الشيخ تقي الدين اجتمع بأركان الدولة واستصرخ بهم وحرصهم على الجهاد⁽⁵⁵⁾، وهكذا أخذ الشيخ تقي الدين أحمد بن تيمية في حض السلطان الناصر محمد وسائر أمراء المماليك على الخروج لمحاربة غازان، وأخبرهم بما أعده الله للمجاهدين من الثواب، ولم

يكتف الشيخ بإثارة حمية السلطان وأمراء المماليك، وإنما اجتمع بالأعيان من الأمراء والعلماء وبخاصة العالم الفقيه ابن دقيق العيد⁽⁵⁶⁾ الذي كانت له كلمة مسموعة عند السلطان وسائر الأمراء، وكان يُجلّ الشيخ تقي الدين ويحترمه ويمكن له الشيء الكثير من المودة⁽⁵⁷⁾.

ويذكر ابن حجر العسقلاني⁽⁵⁸⁾ أن الشيخ تقي الدين أحمد بن تيمية أغلظ للسلطان والأمراء في القول حتى يشعرهم بخطر الموقف في دمشق، وأكد ضرورة الخروج لنجدة دمشق وأهلها وصد غارات غازان، كما أن الشيخ تقي الدين في أثناء إقامته بمصر رفض كل ما خصص له من راتب وجراية وهدايا. ويذكر ابن حجر أيضاً أنهم رتبوا له في مقر إقامته في كل يوم ديناراً ومخفقة⁽⁵⁹⁾ لإطعامه فلم يقبل شيئاً من ذلك، وأرسل له السلطان بُقجة قماش فردها⁽⁶⁰⁾.

ثم عاد الشيخ تقي الدين أحمد بن تيمية إلى دمشق، بعد أن قضى بمصر عدة أيام⁽⁶¹⁾ ليواصل حث همم أمراء دمشق على جهاد المغول⁽⁶²⁾، ويبدو أن جهود الشيخ تقي الدين قد آتت أكلها، فبدأت الاستعدادات في دمشق تأخذ مجراها لملاقاة المغول، خاصة بعد أن عزم غازان على مهاجمتها مرة أخرى؛ ففي شهر صفر عام 700هـ/ أكتوبر 1300م توجه غازان بجيوشه عازماً على غزو دمشق، فوصلت جيوشه إلى جبال أنطاكية، ومنها زحف إلى قرون حماة وشيزر حيث نهب وهو في طريقه إلى دمشق كل ما صادفه من زروع ودواب وأموال.

ويذكر النويري أنه أسر أعداداً كبيرة من المسلمين، لدرجة أن أثمان الأسرى من المسلمين قد رخصت، حتى بيع الأسير والأسيرة بعشرة دراهم، واشترى الأرمن منهم خلقاً كثيراً، ونقلوا في مركب إلى بلاد الفرنج⁽⁶³⁾. غير أنه في أثناء سير غازان نحو دمشق هطلت عاصفة ثلجية لم يعهد مثلها، ففني أكثر ما معه من خيل ودواب لدرجة أن المقريري أشار إلى أن جملة ما كان معه من الخيل والدواب كان اثني عشر ألفاً، فلم يبق منها إلا نحو ألفي فرس، وبقي معظم عساكره بغير خيول⁽⁶⁴⁾.

وإزاء هذا الوضع المتردي الذي أضحى فيه غازان، اضطر للرجوع إلى بلاده في شهر جمادى الآخرة عام 700هـ/ فبراير 1301م دون الوصول إلى دمشق⁽⁶⁵⁾.

وكان السلطان الملك الناصر علم بعودة المغول إلى الشام فخرج من مصر متوجهاً بجيوشه إليها، ووصل إلى العوجاء⁽⁶⁶⁾ حيث اشتد هطول الأمطار، وتعذر السير في الطرقات وتعذر وصول الأقوات، وعندما علم السلطان بعودة جيوش غازان عقب ما لاقتته من عواصف، عاد هو الآخر بجيشه إلى مصر⁽⁶⁷⁾. ويذكر ابن دقماق أن هذه الغزوة سُميت الغزوة الكذابة لعدم حدوث حرب بها⁽⁶⁸⁾.

وهكذا أنقذ الله دمشق من إغارة غازان عليها، وقد أخذ الشيخ تقي الدين أحمد في بث روح الجهاد والطمأنينة في نفوس أهل دمشق، وأخذ يذكرهم بما أحاط الله به المسلمون الأوائل من رعاية وحماية من الكفار والمشركين واليهود في أثناء غزوة الخندق، وأخذ يبشر الناس بالنصر⁽⁶⁹⁾.

أما الموقف في مصر، فقد بدا أن أحوال أهالي بلاد الشام تزداد سوءاً من جراء سلب المغول لأموالهم ونهب دوابهم وزرعهم، ثم كانت دعوة الشيخ تقي الدين أحمد بن تيمية للسلطان والأمراء والأعيان ومقابلته للعلماء بالقاهرة وبثه روح الجهاد، لكل ذلك أخذت تسري في القاهرة دعوات صادقة للخروج إلى محاربة غازان، وأخذ السلطان الناصر محمد في تجهيز الجيوش استعداداً للمسير إلى الشام، وبدأ في جمع الأموال من أهالي الديار المصرية، وكذلك في جمع ما يلزم للقتال من سلاح وخيول⁽⁷⁰⁾.

أما عن العلاقات بين غازان والمماليك فقد أخذت الرسائل تتبادل بين الجانبين؛ حيث أرسل غازان رسالة كلها تهديد ووعد للناصر محمد، يطلب منه فيها أن يكون هو البادئ بالصلح وإرسال الهدايا، فرد عليه الناصر برسالة يحمل فيها المغول بداية العدوان، ورفض أن يكون هو البادئ بإرسال الهدايا وأخذ في تذكيره بما قام به من تخريب في بلاد الشام، ولم تعمل هذه الرسائل على تقريب الهوة بين البلدين، وإنما زادت منها، ومن ثم أخذ الصراع العسكري بينهما يظهر من جديد⁽⁷¹⁾.

وفي عام 702هـ/1303م وصلت إلى الديار المصرية الأخبار بتوجه جيوش غازان إلى بلاد الشام وعلى رأسها قائده المعروف قطلو شاه في نحو ثمانين ألف جندي⁽⁷²⁾. فأمر السلطان الناصر محمد بخروج الجيوش من مصر وتوجهها إلى

بلاد الشام، فتوجه في البداية عدد من الأمراء على رأسهم الأمير بيبرس الجاشنكير وطغريل الأيفاني وكراي المنصوري وحسام الدين لاجين الرومي الاستادار، ومعهم ثلاثة آلاف جندي⁽⁷³⁾، وكانوا قد غادروا القاهرة في 18 رجب 702هـ/ 11 مارس 1303م ووصلوا إلى دمشق في نصف شعبان من العام نفسه، وكتبوا يستحثون السلطان على الخروج والتوجه إليهم بمن معه من جيوش، في حين اضطربت أحوال بلاد الشام كلها؛ حيث فر أعداد كبيرة من أهالي حلب وحماة، وتوجهوا إلى دمشق خوفاً من المغول، كذلك أخذ الخوف يخيم على أهالي دمشق، وبدأت أعداد منهم في الاستعداد للرحيل عن دمشق فنودي فيها من خرج حل ماله وفرسه⁽⁷⁴⁾.

ومن الجدير بالذكر أن غازان أراد أن يعمل على تفتيت جبهة المماليك، فأرسل إلى نائب دمشق عز الدين أيبك الأفرم يغريه بالدخول في طاعته، لكن محاولة غازان هذه باءت بالفشل⁽⁷⁵⁾. كذلك وقف معظم أمراء نيابات الشام في حلب وحماة وطرابلس وحمص وقفه رجل واحد، ودخلوا في حرب ضد جيوش غازان وألحقوا به هزيمة ساحقة عند منزلة عُرض في 10 شعبان 702هـ/ 31 مارس 1303م⁽⁷⁶⁾.

وكان لتأخر خروج السلطان الناصر محمد بجيوشه وتوجهه إلى بلاد الشام أثر كبير في تشجيع المغول على الإغارة على دمشق؛ إذ يذكر التويري⁽⁷⁷⁾ - وكان حاضراً هذه الأحداث ومشاركاً فيها - أن المغول الذين نجوا من وقعة عُرض فروا إلى قطلوشاه وأخبروه أن السلطان لم يخرج من الديار المصرية، وأنه ليس بالشام غير العسكر الشامي؛ مما شجع قطلوشاه على المسير إلى دمشق حيث أسرع في السير حتى نزل على قرون حماة⁽⁷⁸⁾.

ومن الجدير بالذكر أن أمراء الشام كانوا قد عزموا على الدخول في حرب ضد جيوش غازان وعدم الاستسلام له حتى في حالة عدم وصول السلطان الناصر محمد. فيروي التويري أن الأمراء الذين كانوا في دمشق ومعهم الفرق العسكرية الشامية والمصرية قد اجتمعوا وقرروا الدخول في حرب ضد جيوش غازان إن تأخر السلطان، غير أنهم بعد علمهم بتحريك السلطان وتوجهه إليهم

قرروا أن يذهبوا إلى نهر الصُّفر وقيموا عنده إلى أن يصل السلطان، لكنهم ما لبثوا أن غيروا رأيهم واتجه الجميع إلى ميدان الحصا في يوم الأربعاء 28 شعبان 702هـ / 18 أبريل 1303م انتظاراً لوصول السلطان. ويروي النويري أنه استعد هو الآخر "وخرجت من دمشق بعد أن أعددت لأمة الحرب"⁽⁷⁹⁾ والتحقت بالعسكر. . ووصلت بعد المغرب إلى منزلة العسكر بميدان الحصا، فوجدتهم قد توجهوا إلى مرج الصُّفر، فلحقت بالجيوش في يوم الخميس 29 من الشهر - أي شهر شعبان - وأقمنا بالمرج يومي الخميس والجمعة "⁽⁸⁰⁾.

وهذا يدل على تلك الروح المعنوية العالية التي تمتع بها أهالي بلاد الشام في تلك الفترة سواء الأمراء أو الأعيان أو العلماء، ولا يخفى أن السبب الرئيسي في هذه الروح يعود إلى دور العلماء، ومن بينهم الشيخ تقي الدين أحمد صاحب اليد الطولى في الدعوة إلى الجهاد ضد المغول والحث على الثبات في وجههم.

ويذكر أن وصول جيش غازان بقيادة قطلوشاه⁽⁸¹⁾ ومعه مائة ألف من المغول ومن معهم من الكُرج والأرمن⁽⁸²⁾، قد تزامن مع وصول جيش الناصر محمد في مرج الصُّفر بالقرب من شُقحب⁽⁸³⁾ تحت جبل غباغب⁽⁸⁴⁾ في يوم السبت 2 رمضان من العام نفسه⁽⁸⁵⁾، حيث يذكر النويري أن وصولهم - أي المغول - ووصول السلطان بالعساكر المصرية كانا في ساعة واحدة⁽⁸⁶⁾. وأخذ السلطان في ترتيب صفوف جيشه حيث وقف هو بالقلب ووقف الخليفة إلى جواره ومعه مجموعة من الأمراء، كذلك اشتملت كل من الميمنة والميسرة على مجموعة كبيرة من الأمراء، وكان من الواقفين في الميسرة المؤرخ النويري، والأمير المؤرخ ركن الدين بيبرس الدودار⁽⁸⁷⁾.

ولقد ظهر دور الشيخ تقي الدين واضحاً في هذه الموقعة (موقعة شُقحب مَرَج الصُّفَر) حيث أخذ في الحث على الجهاد ضد المغول وفي إقناع الجند وسائر الناس بقتال جيوش غازان، وذلك على الرغم من أن غازان قد سبق إعلان إسلامه وأسلم معه جماعة كبيرة من الجند، فأخذ الناس يتحدثون عن مدى صحة مقاتلة المغول وهم مسلمون؟ وهنا أخذ الشيخ تقي الدين في الإفتاء بوجوب محاربتهم واعتبرهم من جنس الخوارج الذين خرجوا على عليٍّ ومعاوية

ورأوا أنهم أحق بالأمر منهما، وأشار إلى أن هؤلاء المغول يزعمون أنهم أحق بإقامة الحق من المسلمين ويعيرون على المسلمين ما هم متلبسون به من المعاصي والظلم وهم متلبسون بما هو أعظم منه بأضعاف مضاعفة. ففطن العلماء والناس إلى ذلك وكان يقول للناس: إذا رأيتموني من ذلك الجانب - أي جانب المغول - وعلى رأسي مصحف فاقتلونني. فتشجع الناس في قتال المغول وقويت قلوبهم ونياتهم⁽⁸⁸⁾. وأخذ في الحث على الجهاد ضد المغول⁽⁸⁹⁾، فقدم على السلطان والأمراء يحثهم على الجهاد والثبات⁽⁹⁰⁾ ويحلف لهم أنكم في هذه المعركة منصورون، فقال له بعض الأمراء: قل إن شاء الله، فقال: إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً⁽⁹¹⁾. وأفتى بضرورة إفطار الجند - حيث كانت الموقعة في الثاني من رمضان - ليستطيعوا الصمود في وجه المغول، وقد أفطر أمامهم ليقنتدوا به⁽⁹²⁾. ومما يذكر أنه كان يدور على الأجناد والأمراء فيأكل من شيء معه في يده ليعلمهم أن إفطارهم واجب ليقفوا على القتال، فتأكل الناس⁽⁹³⁾.

والواقع أن دور الفقهاء والعلماء لم يقل أهمية عن دور الأمراء والجنود، فقد التقى بالجيش عدد كبير من الفقهاء والعلماء وعلى رأسهم الخليفة العباسي المستكفي بالله (جمادى الأولى 701هـ/ يناير 1302م - ذي الحجة 736هـ/ يولييه 1337م). ويذكر المؤرخون أن الخليفة كان يقف بجوار السلطان الملك الناصر محمد يشد من أزره، ثم أخذ السلطان ومعه الخليفة ولفيف من القراء يقرؤون القرآن ويطمئنون الجند ويحثونهم على الجهاد ويشوقونهم إلى الجنة، وقال الخليفة: "يا مجاهدون لا تنظروا لسلطانكم، قاتلوا عن دين نبيكم ﷺ وعن حريمكم"⁽⁹⁴⁾.

ومما يذكر أيضاً أن الملك الناصر عندما شاهد كثرة عدد المغول قال: "يا خالد بن الوليد، فقال له الشيخ تقي الدين: لا تقل هذا. بل قل: يا الله، واستغث بالله ربك ووَاحِدُهُ، وحده تُنصر. قل: يا مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين". وقد أدى هذا إلى تهدئة السلطان خاصة عندما قال له الشيخ تقي الدين "أنت منصور فاثبت"⁽⁹⁵⁾.

أدى تشجيع الشيخ تقي الدين ومعه جماعة العلماء والفقهاء للجيش إلى صموده في وجه المغول، ومما يذكر عن دور أحدهم في هذه الموقعة وهو من

أولياء الله الصالحين - كما يصفه ابن بطوطة - ويسمى محمد العريان لأنه كان لا يلبس إلا ثوباً من سترته إلى أسفل، في حين يترك بقية جسده مكشوفاً⁽⁹⁶⁾؛ إذ يذكر ابن بطوطة حكايات عن هذا الفقيه أنه لما وصل غازان ملك التتر إلى الشام بعساكره وملك دمشق ماعدا قلعتها، خرج الملك الناصر إلى لقائه، ووقع اللقاء على مسيرة يومين من دمشق بموضع يقال له قشحب (شقحب) والملك الناصر إذ ذاك حديث السن لم يعتد الوقائع، وكان الشيخ العريان في صحبته، فنزل وأخذ قيلاً فقيده به فرس الملك الناصر لثلاً يتزحزج عند اللقاء لحدائه سنه فيكون ذلك سبب هزيمة المسلمين، فثبت الملك الناصر، وهُزم التتر هزيمة شنعاء⁽⁹⁷⁾. ومع ما في هذه الرواية من مبالغة في تقييد فرس الملك الناصر، فإنها تكشف من ناحية أخرى عن دور الفقهاء في الحث على الثبات في وجه المغول حتى يتم النصر⁽⁹⁸⁾.

وكان لما أثاره الشيخ تقي الدين بن تيمية وسائر الفقهاء من حماسة في النفوس أن أخذ الأمراء في المعاهدة على الصمود حتى الشهادة، وكل منهم يحاول أن يتخلص مما لحق به من مساوئ ويشتهي القتال والشهادة، فقد ذكر العيني أنه بلغه من أحد الأمراء أن الأمير بيبرس الدودار (المؤرخ المعروف) كان يقول: أنا عاهدت نفسي الموت، وذلك حين قال له سلال: يا أخي أنت تعلم أن الحديث فينا كثير، وأنا نسبوني إلى التتار لكوني من جنسهم، وأنت نسبوا إليك أنك تكره الجند، فبالله أوص لأصحابك بالثبات وإلا لا يبقى لنا وجه عند أحد بعد هذا اليوم، وتعاهدوا، ووثق بعضهم بكلام بعض⁽⁹⁹⁾.

وقد آتت هذه الجهود أكلها في الثبات ومواصلة الجهاد، فقد حاول المغول في أول أيام المعركة (السبت 2 رمضان 702هـ/ 20 أبريل 1303م) الهجوم بشدة على ميمنة جيوش المسلمين⁽¹⁰⁰⁾، ويروي النويري - وكان حاضراً هذه الموقعة - أن عدد المغول ومن معهم من الكرج والأرمن قد بلغ مائة ألف⁽¹⁰¹⁾. وازداد ضغطهم على الميمنة وقتل رأس الميمنة الأمير حسام الدين الرومي استادار وعدد من الأمراء⁽¹⁰²⁾، فما كان من السلطان إلا أن قام بنجدة الميمنة بمن معه من الأمراء والجنود، وكان واقفاً في القلب كما أعانته الميسرة أيضاً⁽¹⁰³⁾، ونتيجة بث عبارات الجهاد والاستشهاد هبت الميسرة والقلب بشن

هجوم ساحق على جيش المغول، فأنزل بهم هزيمة ساحقة اضطرتهم للتقهقر واللاجء إلى جبل غباغب حتى حل الليل⁽¹⁰⁴⁾، واحتوى المغول بالجبل إلا أن الجنود المسلمين أحاطوا به حتى بزوغ نور الصباح (الأحد 3 رمضان 702هـ/ 21 أبريل 1303م) وضايقوهم أشد مضايقة، وأخذوا في مقاتلة كل من يبادر بالنزول من الجبل⁽¹⁰⁵⁾، ويذكر النويري أن هذا الحصار أشبه بالمصاف، واستمر ذلك حتى الظهر، والمغول محاصرون في الجبل حتى فتحو لهم ثغرة في الميسرة ليخرجوا منها، فلما رأى المغول تلك الثغرة خرجوا منها فارين، في حين تبتعهم الجيوش الإسلامية قتلاً وأسراً حتى حل الليل⁽¹⁰⁶⁾، وفي اليوم الثالث (الإثنين 4 رمضان 702هـ/ 22 أبريل 1303م) أخذت العساكر الإسلامية في تتبع آثار المغول نهائياً⁽¹⁰⁷⁾، وعلى حد قول بيبرس الدودار⁽¹⁰⁸⁾ "تتابعت العساكر تقفوقا التتار، وتأخذ من كماتهم وحمايتهم من الثأر بكل بتار، فامتألت من قتالهم القفار، وأمسوا حديثاً في الأمصار، وعبرة لأولي الأبصار". وعلى هذه الصورة تم هزيمة المغول هزيمة نكراء في وقعة شقحب التي لا تقل أهمية عن معركة عين جالوت. وقد تغنى الأدباء والعلماء بهذه الواقعة، ومن ذلك ما صنفه القاضي علاء الدين علي بن عبد الظاهر من رسالة فيها سماها "الروض الزاهر في غزوة الملك الناصر"⁽¹⁰⁹⁾.

وهكذا يتضح لنا دور الشيخ تقي الدين أحمد بن تيمية في حثه أهل دمشق على الصمود في وجه المغول خاصة عند فرارهم إلى مصر⁽¹¹⁰⁾، كما بذل جهداً كبيراً في استقدام السلطان الناصر والجيوش الإسلامية من مصر لصد المغول، وأخذ شيخ الإسلام في توضيح مناقب الشام وما يتمتع به من بركة من عند الله حتى يملأ قلوب أهله بالثبات في وجه المغول⁽¹¹¹⁾.

وبعد انتصار الجيوش الإسلامية على المغول، دخل الشيخ تقي الدين دمشق في يوم الإثنين 4 رمضان - وكما يقول ابن كثير - "ومعه أصحابه في الجهاد، وفرح الناس به ودعوا له وهنؤوه بما يسر الله على يديه من الخير؛ وذلك لأن العسكر الشامي ندبه أن يتوجه إلى السلطان يستحثه على السير إلى دمشق فتوجه إليه فحثه على المجيء إلى دمشق بعد أن كاد يرجع إلى مصر"،

وعلى ما قام به من حث الجند على القتال والفتوى بالفطر حتى يقوى الجيش على القتال وتبشيره بالنصر على المغول⁽¹¹²⁾.

وقد تمخض عن هذه الموقعة عدة نتائج، أهمها: تأكيد ثقة المسلمين بأنفسهم، وأن الفكرة التي كانت سائدة من أن المغول قوم لا يهزمون هي فكرة باطلة، وقد سبق تأكيد ذلك بعد هزيمة المغول بعين جالوت، واليوم تتأكد هذه الفكرة مرة أخرى، وقد تأكد المغول من قوة المماليك وأنهم لن يستطيعوا إنزال الهزيمة بهم⁽¹¹³⁾. وهان المغول في نظر جميع رجال الجيش المصري والشامي، وأخذوا في تتبع شأفتهم، وعساكر المغول تفر هاربة حتى إن أراذل العامة والغلمان قتلوا منهم خلقاً كثيراً وغنموا غنائم عدة، وقتل الواحد من العسكر عشرين من التتار فما فوقها⁽¹¹⁴⁾، وعم الفرح والسرور أنحاء بلاد الشام وبخاصة دمشق التي كانت هدفاً لغازان، وعلى حد تعبير النويري "عادت المآتم بدمشق أفراحاً وأعراساً"⁽¹¹⁵⁾ كما أن هذه الموقعة كانت تومئ إلى وضع نهاية لأطماع غازان وحلفائه من الكرج والأرمن في بلاد الشام⁽¹¹⁶⁾.

كذلك فإن وقع هذه الهزيمة كان شديداً على غازان؛ إذ تذكر كتب التاريخ أنه لما بلغه الخبر⁽¹¹⁷⁾ "اغتم غمّاً عظيماً وخرج من منخرية دم كثير حتى أشفى على الموت واحتجب عن حواشيه"⁽¹¹⁸⁾، ولم يلبث أن توفي متأثراً بما أصابه من حزن بعد هذه الهزيمة⁽¹¹⁹⁾.

أما عن جهاد الشيخ تقي الدين ضد الكسروانيين، فيذكر المقرئ في أنه في عام 704هـ/1305م توجه شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية في ذي الحجة من دمشق ومعه الأمير بهاء الدين قراقوش المنصوري إلى أهل جبل الكسروان يدعوهم إلى الطاعة فلم يجيبوا، فجمعت العساكر لقتالهم⁽¹²⁰⁾.

فمن هم الكسروانيون؟ ولماذا خرجوا عن السلطان مما لزم دعوتهم إلى الطاعة؟

نسبت هذه الفئة من السكان إلى جبل كسروان؛ وهو جبل متصل بسلسلة جبال لبنان، ويذكر النويري وهو معاصر لهذه الأحداث أن أهل الكسروان

"كانوا قد كثروا وطغوا واشتدت شوكتهم وتطرقوا إلى أذى العسكر الناصري عند انهزامه في سنة تسع وتسعين وستمئة، وتراخى الأمر وتمادى وحصل إغفال أمرهم فزاد طغيانهم وأظهروا الخروج عن الطاعة بجمالهم المنيعة وجموعهم الكثيرة، وأنه لا يمكن الوصول إليهم" (121).

ومن النص السابق يتضح لنا أن أهالي جبل الكسروان أو الكسروانيين وقفوا موقف المعاداة من دولة المماليك نفسها، وانتهزوا فرصة انهزام جيوش المماليك في عام 699هـ/1300م أمام جيوش غازان ودخول جيوش الأخير دمشق وأخذوا يعيبون على الجنود انهزامهم، فيذكر المقرئ أن ضررهم اشتد، ونال العسكر عند انهزامهم من غازان إلى مصر منهم شداً (122).

ومن الجدير بالذكر أن التشيع قد غلب على أهل الكسروان، كما أن منهم جماعة من الدروز المنتشرين في جبل الكسروان (123).

لم يقف أمر أهل جبال الكسروان عند حد الاستهزاء بالجيش المملوكي المنهزم أمام قوات غازان، بل قاموا بسلب أمتعة الجيش ونهب أسلحته؛ مما دفع بعض أمراء المماليك للقيام بشن حملة عسكرية على جبل الكسروان وتأديب الكسروانيين؛ من ذلك ما قام به الأمير أقوش الأفرم بتجهيز حملة خرجت من دمشق في شهر شوال عام 699هـ/1300م، وخرج معه نائب صفد ونائب حماة ونائب حمص ونائب طرابلس حيث التقت جيوشهم وتوجهوا جميعاً إلى جبل الكسروان، فما كان من الكسروانيين إلا أن لجؤوا إلى أعالي الجبل، وهو "صعب المرتقى"، لكن جيوش المماليك زحفت عليهم واستمر القتال لمدة ستة أيام حتى لحقت الهزيمة بأهل الكسروان، وتم قتل أعداد كبيرة منهم وأسر عدد آخر، ومن ثم تم استسلامهم، وحدث الاتفاق مع مشايخهم على استعادة ما أخذوه من أمتعة الجيش وسلاحه، وتعهدوا بدفع مبلغ مائة ألف درهم، وعاد الأمير أقوش الأفرم إلى دمشق بعد أن أخذ عدة رهائن من مشايخهم (124).

ولم يكن معنى ذلك أن أهل جبل الكسروان قد التزموا بطاعة السلطان أو غيروا عقيدتهم، وإنما استمروا على ما هم عليه من عصيان وعقيدة؛ مما دفع الشيخ تقي الدين أحمد بن تيمية عقب موقعة شقحب، وبالتحديد في ذي الحجة

عام 704هـ/ يونيه 1305م، أن توجه بجماعة من أصحابه ومعه نقيب الأشراف زين الدين بن عدنان إلى جبل الكسروان حيث أخذ في وعظ جماعة كبيرة من الأهالي لعودتهم إلى المذهب الصحيح، فاستتابوا خلقاً منهم وألزموا بشرائع الإسلام⁽¹²⁵⁾.

وإزاء استمرار عدد كبير من أهالي الكسروان في غيهم قام الشيخ تقي الدين باستشارة همة الأمير أقوش الأفرم نائب دمشق لقتالهم، وبالفعل، في مطلع عام 705هـ/ 1305م توجه الشيخ تقي الدين أحمد ومعه جيوش الأمير أقوش الأفرم التي بلغت نحو خمسين ألفاً إلى جبال الكسروان، واستمر قتالهم لمدة أحد عشر يوماً حتى قضى عليهم قضاء تاماً، وسيطرت قوات الأمير الأفرم على الجبل سيطرة تامة⁽¹²⁶⁾.

ويذكر ابن كثير أن هذا النصر على أهالي الكسروان إنما أحرز ببركة وجود الشيخ تقي الدين في هذه الغزوة، وقد حصل بسبب شهود الشيخ هذه الغزوة خير كثير، أبان فيها علماً وشجاعة. ويزيد ابن كثير أنه نتيجة ما أحرزه الشيخ تقي الدين من محبة زائدة عقب هذه الغزوة، ازداد عدد حُساده، وقد امتلأت قلوب أعدائه حسداً له وغماً⁽¹²⁷⁾.

وقد يفسر لنا ذلك أن معظم الاتهامات التي وجهت إلى ابن تيمية في عقيدته وإفتائه لم تُثر إلا بعد عام 705هـ/ 1305م؛ أي بعد ارتفاع اسم الشيخ والتفاف الناس على اختلاف طبقاتهم حوله، وبعد دوره في معركة شقحب، ومحاربة الخارجين عن الدين من أهالي جبل الكسروان.

هكذا كان حال الشيخ تقي الدين أحمد بن تيمية، شيخ الإسلام، يقف دائماً مع الحق ضد الباطل حتى وفاته في العشرين من ذي القعدة عام 728هـ/ 28 سبتمبر 1328م، وخير ما نقوله فيه هو تلك العبارة التي اختتم بها المؤرخ والموسوعي النويري الحديث عن حياته حيث قال: " كان شيخاً حافظاً مفرط الذكاء، حسن البديهة، وله تصانيف كثيرة منها ما ظهر، ومنها ما لم يظهر، وشهرته بالعلم تغني عن بسط القلم فيه، وكان علمه أرجح من عقله " ⁽¹²⁸⁾.

الهوامش والمراجع

- (1) أحصى الصفدي مؤلفاته وصنفها. انظر: الوافي بالوفيات، بيروت: 2000م، ج7، ص16-19.
- (2) انظر: الجلند، السيد محمد: «قضية التأويل عند الإمام ابن تيمية»، رسالة ماجستير غير منشورة: دار العلوم، جامعة القاهرة: 1970م؛ النجار، عامر: شيخ الإسلام ابن تيمية، القاهرة: 2004م؛ العبادي، إسلام: سيرة شيخ الإسلام ابن تيمية وحكاياته مع أبناء زمانه، الأردن: 2006م.
- (3) أودع الشيخ السجن خمس مرات، كان أولها عام 705هـ عندما حبس في الجب بقلعة الجبل بالديار المصرية، واستمر بالحبس لمدة سنة ونصف، وفي عام 707هـ في شهر شوال تم حبسه بقلعة دمشق بسجن القضاة واستمر حبسه لمدة سنة ونصف، ثم أرسل إلى الإسكندرية حيث حبس في أحد أبراجها لمدة ثمانية أشهر عام 705هـ، ثم خرج من سجن الإسكندرية ليقضي بعض الوقت بالديار المصرية، وحظي بإكرام السلطان له ف قضى بمصر سبع سنوات، ثم عاد إلى دمشق لنشر علمه، إلى أن اتهم في إحدى فتاواه عام 718هـ حيث أودع السجن بقلعة دمشق لمدة خمسة أشهر، ثم اعتقل عام 726هـ في إحدى قاعات قلعة دمشق، وأقام بها (حيث توافرت له أدوات الكتابة والتأليف، لكن لم يلبث أن مُنع من الكتابة تماماً وأخرجوا ما عنده من الكتب وضيقوا عليه إلى أن توفي بقلعة دمشق عام 728هـ. انظر: الكتبي: فوات الوفيات، تحقيق: محمد محيي الدين، القاهرة: 1951، ج1، ص73-75؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج7، ص15، 16؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، تحقيق: محمد سيد جاد، القاهرة: د. ت، ج1، ص155-159.
- (4) فوات الوفيات، ج1، ص75-76.
- أورد الجزري القرشي تفاصيل اعتقاله الأخير حيث كان معاصراً لهذه الأحداث، كما حضر جنازته وشيعه حتى دفن. انظر: تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه، ج2، بيروت: 1998، ص111-114، 306-310.
- (5) هو السلطان غازان بن أرغون خان بن أباخان بن هولاكوخان، تولى حكم المغول بفارس بين عامي 694هـ-703هـ/1295-1303م. وقد اعتنق الدين الإسلامي في شهر شعبان عام 694هـ وتسمى باسم محمود. انظر: الدرر الكامنة، ج3، ص292-294؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت: 1988م، ص766؛ انظر أيضاً: الصباد، فؤاد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، الدوحة: 1979، ص238، 252؛
- Howarth: History of The Mongols From The 9th to the 19 Century, London 1980, vol3, p.384.
- وعن حياة السلطان محمود غازان واعتناقه الإسلام. انظر: الصباد، فؤاد: السلطان محمود غازان خان المغول واعتناقه الإسلام، القاهرة: 1979م، ص3-25.
- (6) يرجع إطلاق اسم الإيلخانيين إلى كلمة " إيل " المغولية، ومعناها خاضع أو مطيع، فيكون المعنى المطيع للخان أو الذي يمثله ويدين له بالولاء. انظر: الشرق الإسلامي، ص28.

- (7) الهمداني: جامع التواريخ، القاهرة: 1960م، م2، ج1، ص237.
- (8) يحلل الدكتور عبدالسلام فهمي الأسباب التي أدت إلى توتر العلاقات بين المماليك وغازان، ويجملها في تحريض سلطان المماليك أمراء المسلمين على طرد المغول من إيران والعراق، وإيوائهم المتمردين الذين فروا من وجه غازان. كذلك مهاجمة المماليك لبلاد الأرمن حلفاء غازان.
- انظر: تاريخ الدولة المغولية في إيران، القاهرة: 1981م، ص198، 199؛ وانظر أيضاً: عاشور، فايد حماد: العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، القاهرة: 1975، ص145، 146.
- (9) سرور، محمد جمال الدين: دولة بني قلاوون في مصر القاهرة: 1947م، ص176.
- Malcolm: A History of Persia, London, 1929, vol I, pp.274 - 276.
- (10) يرى الدكتور رجب محمد عبدالحليم أن غازان ومن معه من أمراء المغول كانوا يعتقدون في أحقيتهم في الحكم عن المماليك الذين هم عبيد في الأصل.
- انظر: انتشار الإسلام بين المغول، القاهرة: 1986م، ص204.
- (11) يطلق على هذه الموقعة أيضاً اسم وادي الخازاندار. انظر ابن دقماق: الجواهر الثمين في سير الملوك والسلطين، تحقيق: محمد كمال الدين، بيروت: 1985، ص330؛ وعن تفاصيل هذه الموقعة، انظر: تاريخ حوادث الزمان، ص462-463؛ ابن الوردي: تمة المختصر في أخبار البشر، تحقيق: أحمد رفعت البنداري، بيروت: 1970م، ج2، ص353.
- (12) يذكر الذهبي وهو معاصر لهذه الأحداث أن الذي وصل إلى ديوان غازان من البلد - أي دمشق - ثلاثة آلاف وسبع مئة سوى ما أخذ في الترسيم والبرطل. انظر: الذهبي، شمس الدين محمد: العبر في خبر من غير، ج3، بيروت: 1405/1985م، ص395.
- (13) العبر في خبر من غير، ج3، ص394؛ الدرر الكامنة، ج3، ص293.
- (14) المقريزي، (تقي الدين أحمد بن علي) ت 845هـ/1442م: السلوك لمعرفة دول الملوك، القاهرة: 1957م، ج1، ق3، ص889.
- (15) ابن كثير، الحافظ ابن كثير الدمشقي: البداية والنهاية، ج14، بيروت: 1985م، ص136، الدرر الكامنة، ج1، ص154.
- وكان جده العالم المشهور فخر الدين بن تيمية الحراني المتوفى عام 621هـ. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان وأبناء الزمان، ج4، بيروت: 1968 - 1972، ص387-389.
- (16) البداية والنهاية، ج14، ص136؛ المقريزي: المقفي الكبير، ج1، ص455.
- (17) فوات الوفيات، ج1، ص64.
- (18) المقفي الكبير، ج1، ص455.
- (19) النويري، شهاب الدين أحمد: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج32، القاهرة: 1992م، ص91؛ العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ج4، القاهرة: الهيئة المصرية العامة 1985م، ص357.

- (20) أطلق الصوفية على أنفسهم اسم " الفقراء "، وذلك " لأن الفقر شعار الصالحين "، انظر: عاشور، سعيد عبدالفتاح: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، القاهرة: 1962م، ص164.
- (21) السلوك، ج2، ق1، ص16.
- وعن أفعال الصوفية راجع: ابن الحاج: المدخل، بيروت: 1972م، ج3، ص203-209.
- (22) تاريخ حوادث الزمان، ج2، ص309.
- (23) البداية والنهاية، ج14، ص137.
- (24) فوات الوفيات، ج1، ص72-76؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، القاهرة: 1984م، ج1، ص338.
- وقد استعرض ابن شاکر الكتبي أقوال معاصريه في الشيخ تقي الدين شارحاً كل ما تعرض له من أخطار حتى وفاته. انظر: فوات الوفيات، ج1، ص71-72.
- (25) ويبدو أن غازان قد انتهاز فرصة اضطراب الأمور بالسلطنة المملوكية بعد مقتل السلطان لاجين وسلطنة الناصر الثانية، حيث كان السلطان الناصر محمد صغير السن؛ إذ كان يبلغ حينئذ 15 عاماً واقعاً تحت سيطرة كل من الأمير سيف الدين سلاّر نائب السلطنة والأمير بيبرس الجاشنكير الاستادار. انظر: أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج4، لبنان: 1997م، ص40؛ وانظر أيضاً: حسن، علي إبراهيم: تاريخ المماليك البحرية، القاهرة: 1967م، ص86-88.
- (26) السلوك، ج1، ق3، ص889.
- (27) بدر الدين محمد بن جماعة؛ هو محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة، ولد بحماة عام 639هـ/1241م، تلقى تعليمه على يد جماعة من أكابر علماء حماة ودمشق، تولى القضاء بالقدس والديار المصرية والشام، كما درس بمدارس مصر والشام، وفقد بصره في آخر أيامه عام 727هـ، فانصرف عن القضاء لكنه استمر في التدريس، واحتجب في منزله ست سنوات حتى وفاته عام 733 هـ بالديار المصرية. انظر: الدرر الكامنة، ج3، ص367-369.
- (28) الجواهر الثمين، ص330.
- (29) انظر نص هذا الوفاق عند النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج32، ص389-392.
- يعلق بيبرس الدودار على هذا الأمان بأنه نوع من أنواع المكر والخديعة فيقول " وكتب بفرمان إلى الأمراء والعساكر والجيوش والأكابر ليخضع بمكره ويوهم بخداعه ". انظر: زبدة الفكرة، ج9، ص318.
- (30) يدافع الدكتور رجب عبدالحليم عن غازان ويقول إنّ غازان لم يبيع لجنده هذه الأفعال، وإنه لم يكن موافقاً على ما قام به بعض جنده، ثم يضيف أن ما فعله جند غازان كان أقل مما فعله بعض الجند المسلمين بإخوانهم أهالي بلاد الشام مثل الخوارزميين. انظر: انتشار الإسلام بين المغول، ص206 والحواشي.

- (31) الصالحيّة: قرية كبيرة مطلة على دمشق. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج3، بيروت: 1968م، ص390.
- (32) المِرْة: قرية كبيرة غناء في وسط بساتين دمشق. انظر: معجم البلدان، ج5، ص122.
- (33) داريا: قرية كبيرة مشهورة من قرى دمشق بالغوطة. انظر: معجم البلدان، ج2، ص431.
- (34) الجواهر الثمين، ص330؛ السلوك، ج1، ق3، ص892.
- (35) تل راهط: هي أحد المروج بنواحي دمشق، والمقصود هنا مرج راهط. انظر: معجم البلدان، ج5، ص101.
- (36) السلوك، ج1، ق3، ص892.
- عقدت أ.د. حياة الحجي مقارنة جيدة بين ما فعله غازان وجنده من سلب ونهب لبلاد الشام وعدم التزامه بالعهد، وما فعله صدام حسين وجنوده من سلب ونهب لدولة الكويت عندما اجتاحتها دون وجه حق عام 1990م. انظر: الحجي، حياة: صفحات من تاريخ الكويت في ظل الاحتلال العراقي، الكويت: 1995م، ص44-45.
- (37) المقفي الكبير، ج1، ص457-458.
- وعن إخلاص غازان في إسلامه انظر المناقشة التي أجراها كل من:
- Saunders: The History of The Mongols Conquests, London 1971, pp. 136-140;
- Howorth: History of The Mongols From The 9th to The 19 Century, London 1888, Vol3, pp. 437-438.
- (38) الدرر الكامنة، ج1، ص164؛ وانظر أيضاً: محمد السيد الجليند: قضية التأويل عند الإمام ابن تيمية، ص ج.
- (39) السلوك، ج1، ق3، ص892.
- (40) عن انتهاك المغول الموائيق والعهود. انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، بيروت: 1966م، ج12، ص383 وما بعدها؛ وانظر أيضاً: المقارنة التي أجرتها أ.د. حياة الحجي بين ما فعله غازان ثم تيمورلنك وبين ما فعله صدام حسين إثر غزوه لدولة الكويت عام 1990م من عدم احترامه للبلاد والعباد وقيامه بسلب ونهب وتدمير وتخريب. صفحات من تاريخ الكويت، ص33-34، 142-143.
- (41) سنجر أرجواش المنصور، من ممالك المنصور قلاوون، تولى نيابة قلعة دمشق منذ أيام المنصور قلاوون، وعزله الأشرف خليل عنها، ثم أعيد إليها مرة أخرى، حاصره غازان بعد دخوله دمشق، ولكن لم يستطع رجال غازان الاستيلاء عليها بسبب رميه لهم بالنفط، توفي في ذي الحجة عام 701هـ/1301م.
- انظر: الدرر الكامنة، ج2، ص265، 266. وعن سيرته انظر أيضاً: الوافي بالوفيات، ج8، ص220.
- (42) الدرر الكامنة، ج2، ص265، 266.

- (43) السلوك، ج1، ق3، ص892-893.
- (44) السلوك، ج1، ق3، ص893-894.
- (45) السلوك، ج1، ق3، ص896.
- (46) عاشور، سعيد: **العصر المماليكي في مصر والشام**، القاهرة: 1965م، ص49-50.
- (47) كان نائب دمشق في تلك الفترة هو الأمير قَبِجَق من قبل غازان، وهو أحد أمراء المماليك الذين انحازوا إلى جانب غازان. فقام غازان بإقراره على حكم دمشق بمعاونة جماعة من المغول بعد هزيمة جيوش السلطان الناصر محمد. انظر: **تممة المختصر**، ج2، ص353؛ **الجوهر الثمين**، ص331.
- (48) كان المغول قد نزلوا بدمشق واتخذوا القصر الأبلق مكاناً لإقامتهم، حيث توجه الشيخ تقي الدين لمقابلة القائد المغولي قطلوشاه بالقصر الأبلق. انظر: **الوافي بالوفيات**، ج13، ص216.
- (49) السلوك، ج1، ق3، ص896.
- (50) نهاية الأرب، ج31، ص401.
- (51) الأمير قبجق المنصوري أصله من المغول، وقع أسيراً في يد الظاهر بيبرس عام 675هـ/ 1276م، في معركة الأبلستين فأعطاه المنصور قلاوون، حيث أكمل تربيته المنصور قلاوون ورعاه رعاية كاملة، لكنه كان لا يأمنه لميله إلى المغول، وبالفعل عند هجوم غازان على بلاد الشام، مال إليه، وجعله غازان نائباً له بدمشق، ثم عاد بعد ذلك إلى تبعية السلطان الناصر محمد وشهد وقعة شقحب إلى جانب القوات الإسلامية، وكان له اليد البيضاء في النصر لأنه سبق المغول إلى الماء، توفي عام 710هـ/ 1310م.
- انظر: **الدرر الكامنة**، ج3، ص325-327؛ وعن معركة الأبلستين، انظر: **نهاية الأرب**، ج30، ص350-356.
- (52) عُقد الجمان، ج4، ص47.
- وضمنان الخمرور أي الأموال والضرائب التي كانت تدفع لفتح الخمارات.
- (53) الناصر محمد بن قلاوون: تولى الناصر محمد بن قلاوون السلطنة بمصر والشام بعد وفاة والده عام 693هـ/ 1393م، وله من العمر تسع سنوات؛ مما أتاح الفرصة أمام الأمراء الطامعين في السلطة لاغتصاب الحكم، ولم يلبث الناصر محمد أن غادر الديار المصرية عام 696هـ/ 1296م إلى الكرك، ثم عاد مرة أخرى ليتولى السلطنة للمرة الثانية عام 698هـ/ 1308م، وللمرة الثانية تم التضييق عليه من قبل الأمراء الطامعين، مما دفعه إلى الرحيل عن مصر مرة أخرى عام 708هـ/ 1308م ليقيم بالكرك، ثم عاد مرة أخرى ليتولى السلطنة للمرة الثالثة 709هـ/ 1309م، وهي السلطنة التي استمرت حتى عام 741هـ/ 1340. انظر: **السلوك**، ج2، ق1، ص99-100؛ **ابن تغري بردي**: **النجوم الزاهرة في ذكر ملوك مصر والقاهرة**، ج9، القاهرة: د.ت، ص24، 25؛ انظر أيضاً: **العصر المماليكي في مصر والشام**، ص103-121.

- (54) العبر في خبر من غير، ج3، ص406.
- (55) فوات الوفيات، ج1، ص73.
- (56) ابن دقيق العيد: هو أحمد بن علي بن وهب تاج الدين أبو العباس، القوصي المولد، ولد في أحد شهري ربيع 636هـ، وبعد أن تلقى العلم، تولى التدريس بقوص، والقاهرة، وكان كثير التعبد، يصوم الدهر كثير التصديق، توفي في ذي الحجة عام 723هـ.
- انظر: المقفي الكبير، ج1، ص544-545؛ الأدفوي: الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، القاهرة: 1966، ص103-105.
- (57) فوات الوفيات، ج1، ص73.
- (58) الدرر الكامنة، ج1، ص162.
- (59) مخففة أي الشيء العريض الواسع.
- انظر: ابن منظور: لسان العرب، ج2، القاهرة، د.ت، ص1215-1216.
- (60) الدرر الكامنة، ج1، ص162.
- (61) يذكر العيني أن الشيخ تقي الدين بن تيمية قضى بمصر ثمانية أيام حيث أقام بقلعة الجبل.
- انظر: عُقد الجُمان، ج4، ص130.
- (62) فوات الوفيات، ج1، ص73.
- (63) نهاية الأرب، ج31، ص415؛ انظر أيضاً: الدوداري، ابن أبيك: الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، تحقيق: روبرت رومير، القاهرة: 2001، ص46.
- (64) السلوك، ج1، ق3، ص908-909.
- (65) الدودار، بيبس: زبدة الفكرة من تاريخ الهجرة، ج9، القاهرة: 2001م، ص335؛ نهاية الأرب، ج31، ص415.
- يرى ميور Muir أنه من بين أسباب عودة غازان هو يأسه من مناصرة ملوك أوروبا له ومساعدته في الوقوف أمام المماليك. انظر:
- The Mamluke or Slave Dynarty of Egypt, London 1896, pp. 56-57,
- تاريخ المماليك البحرية، ص154-155.
- (66) العوجاء: بين أرسوف والرملة من أرض فلسطين على الساحل.
- انظر: معجم البلدان، ج4، ص167.
- (67) تمنة المختصر، ج2، ص355.
- كتب الشيخ تقي الدين أحمد بن تيمية رسالة كبيرة، قارن فيها بين غزوة الخندق وموقف المسلمين تجاه المغول، وبشر الناس بالنصر، فاجتمع اليهود والمشركون والمنافقون يوم الخندق قبل اجتماع المغول ومن آزرهم من الأرمن وتوجههم لغزو دمشق، والرياح التي

جاءت يوم الخندق قابليها ثلوج وأمطار فاقت المألوف والمعتاد، وكانت من أسباب رحيل المغول، وهو ما يقابل رحيل الأحزاب عن المدينة.

انظر هذه الرسالة: ابن عبد الهادي الحنبلي: العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، ص 120-175؛ انظر أيضاً: ابن تيمية: مناقب الشام وأهله، بيروت: 1405هـ، ص 73، حاشية (1).

- (68) الجواهر الثمين، ص 332.
- (69) تنمة المختصر، ج 2، ص 355.
- (70) السلوك، ج 1، ق 3، ص 906-908.
- (71) انظر: تاريخ المماليك البحرية، ص 156، 157.
- وعن هذه الرسائل، انظر: القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج 7، ص 243-250، ج 8، ص 69-71.
- (72) الجواهر الثمين، ص 332؛ السلوك، ج 1، ق 3، ص 930.
- كان يتم تتبع أخبار المغول ورصد تحركاتهم، وإبلاغها إلى أولي الأمر أولاً فأولاً، وكان من بين الذين قاموا بتتبع أخبار المغول المؤرخ أبو الفدا الذي كان موجوداً بحماة في أثناء زحف المغول في تلك الفترة، وقام بإبلاغ نائب حماة الذي غادرها قبل زحف المغول عليها، وقام بإبلاغه بكل ما شاهده من زحف المغول وأعدادهم. انظر: المختصر في أخبار البشر، ج 3، ص 48.
- (73) الجواهر الثمين، ص 332؛ النجوم الزاهرة، ج 8، ص 157.
- (74) العبر في خبر من غبر، ج 4، ص 5؛ السلوك، ج 1، ق 3، ص 930، 931؛ النجوم الزاهرة، ج 8، ص 157.
- (75) السلوك، ج 1، ق 3، ص 930؛ انظر أيضاً: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، ص 296.
- (76) نهاية الأرب، ج 32، ص 24-26، انظر أيضاً: تنمة المختصر، ج 2، ص 358. وقد شارك ابن الوردي في هذه المعركة.
- غرض: بلدة في برية الشام من أعلى حلب بين تدمر والرصافة. انظر: معجم البلدان، ج 4، ص 103؛ النجوم الزاهرة، ج 8، ص 158، حاشية (1).
- (77) نهاية الأرب، ج 32، ص 27.
- (78) العبر في خبر من غبر، ج 4، ص 5؛ السلوك، ج 1، ق 3، ص 931؛ النجوم الزاهرة، ج 8، ص 158.
- (79) لأمة الحرب: هي أداة الحرب كلها، وسميت لأمة لإحكامها وجودة حلقاتها، وهي كل ما يشمل أدوات الحرب من درع وقوس وغير ذلك وجمعها لؤم ولأم. انظر: المعجم الوسيط، ج 2، ص 844.
- (80) نهاية الأرب، ج 32، ص 27.

- (81) قطلوشاه أو خطلوشاه: يذكر عنه الصفدي أنه كان كافراً ماكراً شاطراً رفيع الرتبة، توفي على أثر إصابته بسهم عام 707هـ. انظر: الوافي بالوفيات، ج 13، ص 216.
- (82) التحفة الملوكية، ص 166؛ نهاية الأرب، ج 32، ص 29.
- تذكر بعض المصادر أن عدد جيوش المغول في هذه الموقعة كان خمسين ألفاً. انظر: السلوك، ج 1، ق 3، ص 932.
- (83) شقحب: قرية في الشمال الغربي من جبل غباغب من أعمال حوران. انظر: النجوم الزاهرة، ج 8، ص 159، هامش (3).
- (84) غباغب: قرية في أول عمل حوران من نواحي دمشق بينهما ستة فراسخ. انظر: معجم البلدان، ج 4، ص 184.
- (85) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر في غزوة الملك الظاهر، تحقيق: عمر عبدالسلام التدمري، الرياض: 2005م، ص 43، 44؛ تنمة المختصر، ج 2، ص 359.
- (86) نهاية الأرب، ج 32، ص 28.
- (87) نهاية الأرب، ج 32، ص 29؛ وانظر أيضاً: التحفة الملوكية، ص 166.
- (88) البداية والنهاية، ج 14، ص 23-24؛ انظر أيضاً: العبادي، إسلام: سيرة شيخ الإسلام ابن تيمية وحكايته مع أبناء زمانه، الأردن: 2006م، ص 197-198.
- (89) النجار، عامر: شيخ الإسلام ابن تيمية، القاهرة: 2004م، ص 30.
- (90) فوات الوفيات، ج 1، ص 72.
- (91) البداية والنهاية، ج 14، ص 23؛ عقد الجمان، ج 4، ص 223.
- (92) ابن عبد الهادي: العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، تحقيق: محمد حامد الفقي، بيروت: د.ت، ص 170.
- (93) البداية والنهاية، ج 14، ص 26؛ وانظر أيضاً: محمد السيد الجليلند: قضية التأويل عند الإمام ابن تيمية، ص ج.
- (94) السلوك، ج 1، ق 3، ص 933؛ العيني: عقد الجمان، ج 4، ص 233؛ النجوم الزاهرة، ج 8، ص 159-160.
- (95) المقفي الكبير، ج 1، ص 458.
- (96) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة المسماة (تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، بيروت، د.ت، ص 538.
- (97) ابن بطوطة: رحلته، ص 539.
- (98) يذكر العيني أن السلطان أراد أن يشارك في الحرب فمنعه الأمراء، وطلبوا منه فقط أن يثبت مكانه، فإذا ثبت السلطان ثبت العسكر، فعرض عليهم السلطان أن يقيدوا فرسه حتى لا

يتحرك ويموت هو على فرسه، فأعجب الأمراء بالسلطان. انظر: عقد الجمان، ج4، ص223؛ أما ابن كثير فقد ذكر أن السلطان أمر بالعمل على تقييد فرسه. انظر: البداية والنهاية، ج14، ص26.

- (99) عقد الجمان، ج4، ص234.
 (100) التحفة الملوكية، ص166.
 (101) نهاية الأرب، ج32، ص29.
 (102) الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، كنز الدرر، ج9، ص87، 88؛ انظر أيضاً: زبدة الفكرة، ج9، ص358.

وقد قدر ابن دقماق عدد الذين قتلوا من الأمراء بألف أمير. انظر: الجواهر الثمين، ص333.

- استادار: لفظ مركب من كلمتين فارسييتين، استد بمعنى الأخذ، ودار بمعنى ممسك، فيكون المعنى المتولي للأخذ، سُمي بذلك لأنه كان يتولى قبض المال، ويشير القلقشندي إلى أنه كان يتحدث في جميع الأمور الخاصة بالبيوت السلطانية. انظر: صبح الأعشى، ج4، ص20، ج5، ص457؛ السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، ق1، ص115، هامش 3.

- (103) التحفة الملوكية، ص166.
 وكان بيبرس الدودار ممن كانوا في جيش الميسرة. انظر: زبدة الفكرة، ج9، ص357؛ وانظر أيضاً: عقد الجمان، ج4، ص232.

- (104) التحفة الملوكية، ص166؛ أبو الفدا: المختصر في أخبار الشر، لبنان: 1997م، ج4، ص49؛ تنمة المختصر، ج2، ص359؛ الجواهر الثمين، ص334.

- (105) زبدة الفكرة، ج9، ص359؛ النجوم الزاهرة، ج8، ص162.

- (106) التحفة الملوكية، ص167؛ زبدة الفكرة، ج9، ص359؛ تنمة المختصر، ج2، ص359؛ الجواهر الثمين، ص334.

- (107) نهاية الأرب، ج32، ص30، 31؛ العبر في خبر من غبر، ج4، ص5.

- (108) زبدة الفكرة، ج9، ص359.

- (109) انظر نص هذه الرسالة عند النويري: نهاية الأرب، ج32، ص31-48؛ ووردت أيضاً في ملحق السلوك، ج1، ق3، ص1027-1039، ملحق رقم 16.

وقد قام أخيراً دكتور عمر عبدالسلام التدمري بنشر هذه الرسالة تحت اسم: الروض الزاهر في غزوة الملك الناصر، بيروت: 2005م.

- (110) مناقب الشام وأهله، ص73.

- (111) راجع: مناقب الشام وأهله.

- (112) البداية والنهاية، ج1، ث25، 26؛ عقد الجمان، ج4، ص243؛ وانظر أيضاً: سيرة شيخ الإسلام ابن تيمية، ص200-205.
- (113) تاريخ الدولة المغولية في إيران، ص211.
- (114) النجوم الزاهرة، ج8، ص163-164.
- (115) نهاية الأرب، ج32، ص40.
- (116) الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، ص256.
- (117) يذكر العيني أن السلطان الملك الناصر محمد تعتمد أن يفك سراح أحد أسرى المغول ويرسله إلى غازان ليخبره بما حل بجيشه من هزيمة نكراء وأرسل معه رسالة لغازان يوبخه فيها لإصراره على قتال المسلمين ويدعوه فيها إلى مغادرة الأراضي العراقية وإعادتها إلى الخليفة العباسي. انظر: عقد الجمان، ج4، ص246-252؛ وانظر أيضاً: الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ص118-122.
- (118) السلوك، ج1، ق3، ص937؛ النجوم الزاهرة، ج8، ص164.
- ويذكر الصفدي أنه بعد عودة القائد قطلوشاه منهزماً إلى غازان غضب عليه الأخير " وشتمه وضربه وأوقفه يوماً في الشمس، وحملها غازان في نفسه، فلم تتناول به الأيام حتى هلك ". انظر: الوافي بالوفيات، ج25، ص124.
- ويضيف المقرئ أن غازان غضب على قطلوشاه " وأبعده من قدامه حتى صار على مسافة كبيرة بحيث يراه، وقام إليه سائر من حضر وهم خلق كثير جداً، وصار كل منهم يبصق في وجهه حتى بصق الجميع ". انظر: السلوك، ج1، ق3، ص938.
- (119) توفي غازان عام 703هـ/1303م وهو في الثالثة والثلاثين من العمر. انظر: الشرق الإسلامي، ص340؛ عبدالعزيز فهمي: تاريخ الدولة المغولية، ص211؛ شبولر، برتولد: العالم الإسلامي في العصر المغولي، دمشق: 1982م، ص76.
- (120) السلوك، ج2، ق1، ص12.
- (121) نهاية الأرب، ج32، ص97.
- (122) السلوك، ج1، ق3، ص903.
- (123) السلوك، ج1، ق3، ص902، حاشية (3). حيث يقول الدكتور زيادة: إنَّ الدروز إحدى فئات أهل لبنان وهم منتشرون أيضاً في جبل الكسروان.
- (124) السلوك، ج1، ق3، ص903.
- الأمير أقوش الأفرم الجركسي، كان من ممالك المنصور في بداية الأمر، تولى وظيفة الحجووية زمن المنصور لاجين، وولاه الناصر محمد نيابة دمشق، توفي بعد عام 720هـ. انظر: الدر الكامنة، ج1، ص424-426.
- (125) ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص35.

- (126) السلوك، ج1، ق1، ص15.
- (127) البداية والنهاية، ج14، ص35.
- (128) نهاية الأرب، ج33، ص277.

* * *